قصة قصيرة

رقصة البهلوان الاخيرة

خيري الذهبي

والتفت خليل اليه . كان يعبّ من الوسكي :

ـ دياب . ستحرق امعاءك بهذه الطريقة .

التفت دياب اليه من مجلسه بنصف وجهه :

ـ ما الـــذي يهمّ بعد يا خليل ؟ انهـا محروقة محروقة ..

ـ سنجد حلا ما . لا تكن شديد التشاؤم .

ـ لست شديد التشاؤم يا خليل ، ولكن لم تعد لي رغبة في الاستمرار .

ـ هيه . دع هذا الوسكي مـن يدك ، وحدثنا ، أي شيء يا رجل .

ـ الحديث ؟ صحيح . لم يبق لنا الا الحديث .

ـ نحاول تناسي ما يجـري هناك . (وأشار الى الخارج) .

ـ اننا جزء منه .

ـ كنا ، ولكنا طردنا منذ أمد (قال سليمان) .

ـ انهم أبناؤنا . نحن الذين شحناهم بما يقتتلون من أجله . أليست مقالاتك ، ومحاضراتك ، ولوحاتك . وطالباتك ؟ (كان يشير باصبعه من واحد الى آخر) .

ـ دياب . هل أثقلك الشراب ؟

ـ كلكم تتمنون هـذا . تقولون : أثقله الشراب ، ولن يتحدث . لن يقول كـل شيء ، لن يفضح ، ولكني سأقول . أتسمعون ؟

ـ دياب . قل . هل هناك ما يزعجك ؟ (قـال سعيـد) .

ـ أنت انسان آخر يا سعيد . اتذكر ؟

ـ اذكر ماذا ؟ (قال سعيد مداريا) .

ـ أتذكر ؟ لا . لا اظنك تذكر (قالها يائسا) .

ـ اذكر ماذا يا دياب ؟

ـ حين كنا ساهرين في مقهى الشانزيليزيه .

ـ منذ متى ؟

ـ ألم أقل لك ؟ انك لن تـــذكر ... لم اكن قد شربت حينذاك اكثر من كأسين (وأخـذ يتحدث الآن في وتيرة رتيبة كمن يحدث نفسه) وكنت قد سألتني فجـأة عمـــا اراه لترجمـة كلمـــة Acculturation فقلت لك ساعتئذ اني ارى انهـــا تعني التمازج الثقافي أو التلاقح الثقافي .

ـ آه . صحيح . الآن أذكر .

ولكن دياب تابع كمن لم يسمع مقاطعة سعيد :

ـ ولكنك اعترضت ، وقلت بأنك ابتكـــرت لها ترجمة جديدة هي المثاقفة .

ـ صحيح . صحيح .

ودار النقاش قليلا حول هذه النقطة ، وكان يمكن أن ينسى كما تنسى كل النقاشات الصغيرة لو لم أدع في سهرة تلك الليلة الى سهرة كـان فيها شاب أقرب الى الصبي فـــي العشرين أو حواليها ، وكان وجهه أبيض بشكل غريب ، واحتفى بي كما احتفى الموجودون، ولكن كان في عينيه ، وفي شفتيه أسئلة كثيرة .

رفع الكأس الى شفتيه ليشرب ، ولكنه كأنما غيّر رأيه حينما اقترب الشراب من شفتيه فأعاده .

سأله واحد من الحاضرين : هل عانيت كثيرا ؟

وكأنما باضافة واحد آخر الـى المستمعين وجـد فرصة أخرى للحديث ، فأخـــذ يحدّث عن التعذيب ويحدّث . كان فتى صغيرا بعينين سوداوين واسعتين وشعر طويل قليلا . حدّث عن لحيته التي نتفت خصلة خصلة . حدّث عن وسائل وأشكال مـن التعذيب لـم أتوقف عندها رغم توجهه اليّ بالحديث ، ورغم محاولته بهري بوصف تحمله . ولكني فجأة توقفت أمـام شكل غريب . حدّث عن كيس أسود ألبسوه له عند التحقيق.

ـ كيس أسود ؟ (سألته) . واجـــاب : نعم .

وكأنه سعد لاهتمامي ، فأخذ يمعن في التفصيل والشرح :

ـ يدورون بك قليلا حتى تضيع حسّ الاتجاه ، ثم ينفجر فجأة سؤال ما من اليمين ، فتلتفت لتجيب ، ولكن كلمة كذاب تصفعك من اليسار . تلتفت لترد ، فتجد السؤال الثاني ينتظرك من الخلف . تلتفت لتجيب ، ولكن كلمة كذاب تصفعك من اليسار . تلتفت لترد ، فتجد السؤال الثاني ينتظرك من الخلف . تلتفت لتجيب ، فتأتيك الصفعة من الخلف الذي كان أماما ، وتحسّ بالصفار ، بالضياع ، بالاضمحلال . من أنت ؟ ما أنت ؟ ما يريدون ؟ وكان هذا ما يريدونه فعلا . انك حين تجيب ، فترى انعكاس جوابك على مخاطبك تعرف ان كان قد اقتنع أم لا ، فتقرر الاستمرار في الرواية أو تغيير شكلها ، وتعرف ان كان سيتحول للعنف فتستعد .

لقد تعودنا على التعامل مع حاسة البصر ، ولكنهم يفقدونك اياها ليس عن طريق العصب ، ففيه تحسّ بأن شيئا خارجيا يمنعها من الاستعمال ، ولكن بهذا الكيس الاسود اللعين ، الظلام الغريب ، ضياع المكان ، اللامكان ، اللاواقع . وتضعف . ولكن شيئا من الداخل يناديك : تكيّس أيها الرجل . وضعوك في كيس لاضاعتك . ولم يبق لك الا أن تحارب بنفس السلاح . تكيّس كما تفعل الكائنات الاكثر ضآلة في الكون حين تدافع عن كينونتها ضد العدم . وهنا ينهارون . يتحولون الى الضرب المنظم وغير المنظم ، وترتاح . انه تعامل المادة مع المادة ، الجسد مع الجسد . تتوقع الضربة وتنالها . وتحسّ بالتماسك فتقوى ثانية وتقرر الصمود .

حين كان يتحدث أحسست بدوار خفيف . أيعقل هذا ؟ أيمكن ؟ وكان في الحاضرين بعض من كان سجينا سياسيا . فسألتهم ان عرفوا الكيس الاسود ؟ وأجابوا بالنفي .

أصبح الكيس الاسود همي . صار السجناء السياسيون مطلبي . كلما قابلت واحدا منهم انفردت به ، وسألته عن الكيس الاسود ، ولكنهم جميعا نفوا معرفته ، وأدركت الحقيقة التي كنت أخاف منها دائما . نحن الذين علمناهم الكيس الاسود .

ـ كيف ؟ (سأل سعيد مسحورا) .

ـ كان ذلك بعد عودتنا من فلسطين حين اجتمعوا بنا وسألونا . حدثناهم عن كل شيء ، عن التعذيب . عن الضرب ، عن الزنازين الصغيرة تبنى على قدر جسم الانسان فلا تمكنه من الوقوف لانها أقصر من طوله ، ولا تمكنه من الجلوس فذرعها لا يزيد عن نصف متر في نصف متر ، وعن أرضها المفروشة حصى مدببا مثبتا بالاسمنت يجلد الاقدام العارية ويعذبها . تبحث عن نقطة راحة فلا تجدها ، تبحث عن متكأ يرتاح اليه الجسم العاري فلا يجده ، نبحث عن صديق تحاوره ، فلا تجد الا النفس ، وتتذكر الحلم القديم ، الرغبة في العودة الى الرحم . ها هم قد أعادوك أخيرا ، كبيرا ، عاريا ، مشعّر الجسم ، مقبوض اليدين ، مجبرا على الانحناء ، وثني الركبتين تماما كما لو كنت في الرحم ، ولكنه الرحم الاسود ، العتم ، العذاب ، الجلد ، الصفع ، التحقير .

ـ دياب . خذ سيكارة (قالت سليمة تناوله سيكارة مشتعلة) . أخذها منها . سحب منها نفسا عميقا . أبقاه طويلا في صدره ، ثم قذفه كما لو كان يتمنى أن يقذف صدره معه .

ـ وحدثناهم عن الكيس اللعين الاسود يفصّل على قدّ الرأس بأنشوطة تشد على الرقبة فتعزل كل الحواس خارج العالم ، وليس من صلة الا هذا الصوت الغريب الذي يجرك وراءه ـ يمينا ، شمالا ـ وتمشي يمينا أو شمالا ، ثم يأتيك صوت آخر غريب ـ كديما ـ وتتقدم ليبدأ الاستجواب اليومي اللعين ، ولكن الحيلة التي لجأ اليها الفتى فيما بعد كنت قد اكتشفتها من قبل . كانوا قد جربوا الضرب ، فتكيّست مقنعا نفسي اني لست المعني بالضرب ، وجلادو العالم جميعا يعرفون ـ والمحترفون منهم خاصة ـ متى تقرر الضحية ان تتكيس ، متى تقرر الضحية الا تشعر بالالم ، متى تقرر الضحية احتقار هذا المنقض وحشا ، وعند ذلك ينسحب الجلاد على الاغلب لانه يعرف الا فائدة بعد .

وحينما جربوا الكيس الاسود ذعرت في البدء . اصابني الضياع . حاولت ايجاد طريقة للتعامل معهم ، ولم تكن هنالك من طريقة الا التكيس ، رفض الاستجابة ، رفض العالم خارج الكيس .

توقعت الضرب والتعذيب . ولكنهم لجأوا الى الغرفة الرحم . وفيها ـ وهذا الطريف في الامر ـ اتيحت لي الفرصة للتفكير . وتذكرت ما كنت أسمعه عن محاكم التفتيش في اسبانيا ، والتي كان الكهنة المحققون يمارسون فيها تعذيب الاندلسيين المسلمين واليهود ، فكانوا يلبسونهم الكيس الاسود الذي بقي في ذاكرة اليهود يحملونه جيلا بعد جيل ، ولا شك ان الذي قدمه لمحاكم التفتيش الحديثة في اسرائيل كان يهوديا أندلسيا .

ـ تسفار ادي ـ قال سليمان .

ـ نعم . تسفار ادي جمله في ذاكرته ، ولكن ليمارسه ضد شركائه في العذاب ، ضد العرب ثم حملته أنت لتنقله الينا معك .

ـ نعم يا سيدي . هذا هو التلاقح الثقافي الجديد .

قالها وهو يطفىء سيكارته في الصحن ، ويستند الى الوراء في هدوء .

ران على الجمع صمت غريب أتيحت لهم فيه الفرصة لمراجعة الذات قليلا .

ـ جعت ـ قالت نوال .

ـ كلنا جعنا ـ قال سليمان ـ ولكن ما العمل ؟.

ـ سأبحث عن شيء في المطبخ ، قالت نوال وهي تقوم .

استرخى سليمان الى الوراء بظهره يستسلم للراحة ، لعله يوفر شيئا من الجهد ، من الطاقة .

ـ ألم تجوعوا ؟ قال سعيد .

ـ الجوع ؟ اظن اني منذ ذلك الحين بدات افهم الهنود قليلا .

ـ كيف ؟

ـ بعد اضراب عن الطعام استمر أسبوعا ، وكنا اربعة في زنزانة واحدة . كانوا يأتوننا بالطعام الذي غيروا نوعيته ، وحسنوا طعمه ، وزادوا من كمية التوابل والبهارات فيه بشكل غير معقول . كانوا يعرفون ان الحيوان اذا جاع نشطت حواسه ، وخاصة الشم منها . كان الطعام على مبعدة مترين منا ، ولكن الرائحة كانت تتسلل الى الانف ، فالحلق ، فالصدر، فالنخاع الشوكي. كنت أحس الرائحة تداعب حواسي مداعبة الى الجنس اقرب . تتسلل ، تتحسس ، تداعب ، تدغدغ، تحرك، تثير ، تدفع بالعصارات الهاضمة الى المعدة فتنفتح كالرحم ينتظر القذف ، ولكنه يتأخر فتصاب بالاحباط، فتنقبض ، ثم هبة رائحة اخرى ، ومداعبة ، وتسلل ، ودغدغة ، وانفتاح ، ثم احباط آخر .

وقررت ان العب اللعبة الاخرى، لعبة الوهم . استلقيت على السرير . اغمضت العينين . غطيت الرأس بالبطانية ، وبدأت انسج الوهم . انا الآن طفل صغير في المنزل ، اصعد الدرج . الام في غرفتها العلوية .اتسلل اليها . اريد احتضانها وتقبيلها . انها عودة المسافر. ادخل الغرفة . الام تتحول الى صينية من ورق العنب المحشو . انفض الرأس . ابتعد . العن الخيال الفاشل . اقرر استدعاء صورة اخرى ، المرأة المعشوقة ، جلسة الى جانب النهر، اغصان الصفصاف المهتزة المتمايلة المرتعشة ، واركز على تفاصيل الوصف لاخلقه ، وارى الصفصاف والنهر والغيمة الصغيرة في آخر الافق ، بل أرى ورقة صفصاف صغيرة تتهادى في هدوء في اتجاه صفحة النهر .

المجلس المستتر بين الصفصاف واشجار الحور على مبعدة قليلا . ضفدع يقفز الى جانب النهر الطيني. العينان الواسعتان السوداوان ، فقاعات ماء صفراء في جانب النهر الراكد . الحبيبة الجميلة مستلقية تنتظر التقبيل والعناق .

انظر اليها . مائدة طويلة انتشر عليها اللحم المشوي والسلطات والمقبلات والحمص والعرق والماء والثلج والنعنع و .... و. ، وانفض رأسي . اللعنة . حتى الخيال يهاجمني . امسك باطباق الطعام ، فأرميها في سطل البول . عيون ترمقني في شبق وحقد . انهم المتظاهرون بالنوم الثلاثة .

شرد قليلا . الجوع ؟.. دخلت نوال تحمل في يدها كسرة خبز قضمت منها قضمة نظرت الى الهام وسليمة . نظرتا اليها قليلا ، ثم حولتا نظريهما .

ـ ايحب أحد أن يشاركني فيها ؟

كانت بحجم الكف ، ولكنها قطعة خبز ! نظروا اليها قليلا ، وقال سليمان :

ـ ألم تجدي غيرها ؟

ـ غسلتها مرتين ، كانت وراء سلال الخضار

ـ اقتسميها مع سليمة والهام

لم تعترضا ، ولم تردا . كسرت قطعة الخبز الى ثلاث قطع وضعت اثنتين منها أمامهما. صمتتا. لم تمدا يديهما ، وقال نبيل فجاة : الحياة غريبة . من كان يصدق هذا ؟

ـ ماذا ؟

ـ ما نرى ، وما نسمع .

وانتبهوا ثانية الى أصوات الانفجارات تلعلع ، ولم يرغب واحد منهم في الاستفسار ، ولكن نبيل الذي صمت طويلا بدا وكأنه يريد أن يقول كل شيء مرة واحدة فقال :

ـ كانت عيناها اجمل ما فيها ، عينان كبيرتان واسعتان عميقتان سوداوان ، بشرة خمرية السمرة تنضح بالحيوية والفتاة . كان الشباب جميعهم متيمين بها ، وكانوا قد أسموها عشتار . لماذا ؟ لا ادري . ولكنها قطعا لو وجدت في عصر آخر لسميت عشتار . طويلة ممتلئة قليلا ، ولكنه الامتلاء الذي يغريك بالضم والتجميش ، وايداعها طفلا .

كانت دعوة مستمرة للحياة ، تتقافز فيتناثر شعرها الاسود عقبانا سوداء محومة تحاول الحط فتنشد الى فوق .

الكتفان المستديرتان، الذراعان الصلبتان السمراوان العاريتان تبرزان من ثوبها الجابونيز . رائحة عرق خفيفة تنبعث مسكرة من الآباط . تدور قليلا ، وتحس بانك لا بد ان ترضخ . دعوة مستمرة ويعاسيب كثيرون يدورون في فلكها ـ عشتار . عشتار .

(فصل من رواية تحمل عنوان القصة نفسها)